تأثير التنمية الحضرية على المعالم الأثرية: مدينة ندرومة نموذجاً

محمد بن زغـــادي[1]

الملخص:

تعتبر المعالم الأثرية على اختلاف أنواعها وأصلها، شواهد ملموسة عن ماضي الأمة وحاضرها وسجلاً بصرياً بالغ الدقة لما أبدعه الأسلاف في مضمار الفن المعماري، فهي بمثابة الوعاء الذي يصب فيه الفنان المبدع خالص عبقريته من زخرفة وتنميق، لذلك لابد من اعتبارها ثروة فنية ذات مدلول اجتماعي وثقافي، ومرآة عاكسة لمدى التقدم والرقي الحضاري، والمتعارف عليه أن قدراً كبيراً من القيمة الجمالية والتاريخية للمعالم الأثرية تقف على المحيط ومدى انسجامها فيه،لكن عجلة التقدم الحضاري أفرزت مجموعة من العمليات التنموية: كعملية التنمية الحضرية، والتي –غالباً– شوهت المحيط وأفقدته قدرته على إيصال حس المشاهدة، فسقط بذلك في فوضى هذه الأخيرة،التي جعلت من المعالم الأثرية كقشرة جوفاء. ومن جملة المدن الإسلامية العتيقة التي هبت فيها رياح التنمية الحضرية، مدينة *ندرومة* العتيقة التي تحتضن إرثاً معمارياً لا بأس به فهي تعتبر مهد الموحدين ومسقط رأس عبد المؤمن بن علي الكومي، كما أنها تكتسب هندسة معمارية مماثلة لهندسة المدن القديمة ذات الطابع الإسلامي. والإشكالية التي تبقى قائمة هي: ماهية التنمية الحضرية؟ وما هي أسباب ظهورها بمدينة *ندرومة* العتيقة؟ وما هي تأثيراتها على النسيج التاريخي بالمدينة؟ وكيف السبيل للحد من أضرارها ومعالجتها إلى حدٍّ يمكن فيه التوفيق بين الأصالة والمعاصرة داخل مدينة *ندرومة* العتيقة؟ ولدراسة هذه الإشكالية استعنت بالمنهج التاريخي للوقوف على المقومات التاريخية للمنطقة وإبراز عمقها التاريخي الذي أخذ يضمحل أمام وطأة التنمية الحضرية، واستعنت كذلك بالمنهج التحليلي لمعاينة المعالم الأثرية وتشخيص الأسباب والتأثيرات و من ثم اقتراح كيفية المعالجة.

1-الإطار الجغرافي:

إن دراسة مواقع المدن التاريخية يساهم بشكل مباشر في إبراز الوجه والعلاقة المتبادلة بين مظاهر سطح المكان والمستوى الحضاري الذي تصل إليه الحواضر قديماً،إذ يرتبط النشاط البشري ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية التي تحيطه، بناءً على هذا نعرض لمحة عن موقع مدينة *ندرومة*، والتي تعتبر أفضل المدن بمنطقة ترارة، إذ تحتوي ثروة مائية كبيرة تتدفق من الجبال المحاذية لها كما أنها تحتل موقعاً استراتيجياً يسهل من مهمة الدفاع عنها ضد الغزاة،[1] تتواجد مدينة *ندرومة* في منطقة متميزة من

[1] **قسم علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد (الجزائر)**

ولاية تلمسان، فهي تمتد على طول سفح جبل فلاوسن الذي يبلغ ارتفاعه 1138م،[2] تقابل البحر الأبيض المتوسط الذي تبعد عنه بخط مستقيم بحوالي 6 كلم، وهي تبعد عن مدينة تلمسان التي تحدها من جهة الشرق بحوالي 60 كلم،أما غرباً فتحدها مدينة مغنية التي تبعد عنها بحوالي 35 كلم، ويحدها من جهة الشمال على بعد 22 كلم مرسى الغزوات. أما جنوباً فيحدها جبل فلاوسن ولقد بلغ تعداد سكانها حسب إحصائيات سنة 2008 حوالي 31076 نسمة.[3]**(خريطة رقم 1)**.

أما بالنسبة للمدينة العتيقة *بندرومة* فهي تتألف من نسيج عمراني دائري الشكل حول مركز الجامع الكبير، وهي محاطة بأسوار منيعة لازال البعض من أجزائها قائماً بالجهة الجنوبية متواجداً، ويمكن تحديدها من الجنوب ببقايا الأسوار العريضة المسماة بالقصبة الموجودة على طول طريق مغنية. أما شمالاً فتحدها المدينة الجديدة وذلك على طول شارع المغرب. أما شرقاً فتحدها مقبرة المسلمين عبر طريق تلمسان وغربًا يحدها حي بوقميلة الذي يفصلها عنه واد عامر، ويتواجد بها أربعة أحياء أساسية تلتقي في الساحة المركزية المسماة بالتربيعة التي كانت بمثابة سوق للصرف أما أسماء أحيائها لازالت تُنطق لحد الآن وهي حي بني زيد، وحي بني عفان، وحي السوق، وحي الخربة، في كل حي يتواجد مسجد مثل مسجد سيدي المنديل، سيدي السياج، وسيدي بوعلي، والقدّارين، تبلغ مساحتها الإجمالية حوالي 16 هكتار.

2-الإطـــــــار التاريخي:

لقد حظيت المدينة العتيقة *بندرومة* بقسط وافر من الدراسة على يد مجموعة من الدارسين والباحثين أمثال الحسن بن محمد الوزان،الذي يُرجع تأسيسها إل الرومان الذين اختاروا لها موقعاً وتصميماً مماثلاً لمدينة روما وأن اسمها مشتق من كلمة "ند" التي معناها "سميليس" باللغة اللاتينية أي مثيل،[4] لكن الدراسة التي أجريت من طرف الباحثين والدارسين لم تصل إلى أي نتيجة تدعم فكرة ما سبق ذكره،أما الباحث باسي BASSET فيتحدث عما أورده اليعقوبي في مؤلفه البلدان عن قبيلة بربرية أسماها فلاوسن تسكنها مجموعة من البربر وأن مدينة *ندرومة* حلت محلها لينتقل الاسم إلى الجبل المحاذي لها ومعنى اسم فلاوسن هو آفلا وتعني فوق و أوسن تعني قرية،[5] ويبدو أن اسم *ندرومة* يذكره البكري لأول مرة في القرن 5هـ/11م بصيغة صريحة واصفاً المدينة على أنها ذات أهمية كبيرة من الجانب الاقتصادي بقوله: " *إنَهَا فِي طَوْفِ جَبَل تَاجْرَا وَغَرْبِهَا وَشَمَالِهَا بَسَائِط طَيبَة وَمَزَارِع وَبَيْنِهَا وَبَيْن البَحْر عَشْرَةُ أَمْيَال،وَسَاحِلُهَا وَمَرْسَاهَا وَادِي مَاسِين وَهُوَ كَثِيرُ الثِمَار،مَأْمُون عَلَيْه حِصْنَان وَرِبَاطٌ حَسَنٌ مَقْصُود،يُتَبَرَكُ بِهِ إِذَا سَرَقَ أَحَدُهُم فِيهِ أَوْ أَتَى بِفَاحِشَةٍ لَمْ تَتَأَخَر عُقُوبَتَه* ".[6]

بعد قرن من الزمان تحدث الإدريسي هو الآخر عن مدينة ندرومة واصفاً لها بقوله: "*مَدِينَة نَدْرُومَة فِي سَنَد وَلَهَا مَزَارِعُ كَثِيرَة وَلَهَا وَادِي يَجْرِي فِي شَرْقِهَا وَعَلَيْه بَسَاتِينُ وَ جِنَان وَعِمَارَة وَسَقْيٌ كَثِير*"،[7] هذه اللمحات الوصفية التاريخية تعكس بجلاء ما كانت المدينة تتميز به من خصائص العمران المدني، إذ تقدم لمحة عن مدينة *ندرومة* في شقها الفلاحي و المعماري ما يؤكد أنها كانت واحدة من أجمل مدن المغرب الأوسط وموطناً مغرياً للاستيطان.

حيث استقطبت السكان من جميع الحواضر وأصبحت المكان المفضل لإقامة العامة من الناس والخاصة، هناك بعض المصادر تشير إلى تفضيل بعض العلماء السكن في هذه المدينة وإلى غناها الطبيعي، من هؤلاء العلماء الفقيه محمد حرشاوي ندرومي والولي الصالح أحمد بن الحسن الغماري.[8] كما جعلها ذلك الموقع الاستراتيجي نقطة لتمركز العديد من الدول الإسلامية كالمرابطين، والموحدين، والزيانيين، وفيما بعد الأمير عبد القادر.من أهم الفترات الإسلامية التي بها مدينة *ندرومة* العتيقة و التي شهدت فيها أحداثاً تاريخية هي: العهد الإدارسي، والعهد الفاطمي، والعهد الحمادي، والعهد المرابطي، والعهد الموحدي، والعهد الزياني، والعهد المريني، والعهد التركي، وعهد الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة.

3-المعالم الأثرية بمدينة ندرومة العتيقة:

مدينة *ندرومة* من المدن الإسلامية التي تحظى بهندسة معمارية مماثلة لهندسة المدن العتيقة، وإرث معماري أصيل يتمثل في تلك الشواهد الأثرية، ولقد تبين أنها تجمع بين الطابع الديني والمدني والعسكري.

أ-المعالم الأثرية الدينية: مدينة *ندرومة* كباقي المدن التي اعتمدت في تصميمها على المسجد الجامع كنواة أو مركز لها، ومنه تفرعت باقي المجالات الدنيوية الأخرى، يرجع الـــفضل في الـــتعرّف على تاريـــخ بناء هذا المعلم الأثري إلى لوحة خشبية كانت جزءاً من منبر الجامع، شكلها عقد نصف دائري، تتألف من اثني عشرة سطر، يبلغ ارتفاعها1متر، وعرضها 0.72 متر، تبرز أن الجامع هو من تشييد المرابطين، يذهب مكتشف اللوحة بَاسِي RénéBasset، أن المشيد هو السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين في الفترة التي أصبح فيها سلطاناً فيما يقارب سنة474هـ/1081م،[9] إضافة إلى الجامع الكبير (أنظر الصورة رقم 1). ومسجد القدارين: يتواجد هذا المسجد على مستوى حي القدراين، وقد بني هذا المسجد من طرف صناع الأواني الفخارية، وذلك في عهد الدولة المرابطية، و هو مصنّف كآثار وطني منذ1912م، طراز بنائه مماثل لطرز أغلب المساجد بالمغرب الإسلامي، وفي ظل غياب أي مصدر عنه يظل تاريخ بنائه مجهولاً، لكن رينيه باسي يرجع فترة بنائه إلى الأدارسة،[10] و هناك أيضاً ضريح سيدي أحمد البجائي، مسجد سيدي المنديل.

ب-المعالم الأثرية المدنية:هناك قصر السلطان فمدينة *ندرومة* واحدة من المدن التي حظيت بهذا النوع من البصمات المعمارية، فقد حظيت بأهمية السلطان الموحدي الذي بنى بها قصره عام1160م، وقد اختار له عبد المؤمن بن علي مكاناً بالجهة الجنوبية من المدينة العتيقة. والسوق:الذي يمثل السوق المجال، والذي تدب فيه الحياة في المدينة الإسلامية، إذ من خلاله تنشط المبادلات التجارية عبر ما يأتيه من سلع داخلية وخارجية، كالقوافل التجارية القادمة من بلدان أخرى، وقد شكلت مدينة *ندرومة* في وقت من الأوقات نقطة التقاء اقتصادي بين مجموعة من البوادي والأرياف و بين سائر الدول المجاورة عبر ميناء الغزوات.[11] والحمام البالي: يحمل الحمام طابعاً مدنياً محض، باعتباره مركز التقاء العامة من الناس للاستحمام وهو يخدم بهذه الوظيفة مبدأً من مبادئ الدين الإسلامي ألا وهي الطهارة، ويوجد بمحاذاة الجامع، في ظل غياب المصادر الموثقة، يرجح أنه بني في عهد الدولة المرابطية مابين 1095م و1147م.[12] **(أنظر الصورة رقم 2).**

جـــ-المعالم الأثرية العسكرية: الأسوار مبنية بمادة التراب المدكوك التي تعد ميزة بلدان المغرب الإسلامي في تلك الفترة الزمنية لوفرة مادتها ومقاومتها الفعالة لعوامل الطبيعة، وضربات المناجيق، أما الأبواب فعددها أربعة: باب المدينة في الشمال، وباب تازة في الغرب، و باب الفراقي بالشرق، و باب القصبة بالجنوب هذا الأخير الذي بقي على حاله إلى يومـــــــنا هذا.

4-التنمية الحضرية أسبابها وتأثيراتها على المعالم الأثرية وكيفية المعالجة:

إنّ ما تشهده المدن العتيقة عامة والمعالم الأثرية خاصة هي من أكبر الثورات التي عرفها التاريخ البشري، فعملية التنمية الحضرية قد نمت بوتيرة سريعة في الآونة الأخيرة واضعة بذلك التراث المادي في خانة النسيان الأبدي، هذا الأمر الذي نلمسه في مدينة *ندرومة* العتيقة التي طرأ عليها قطع في تواصلها الحضاري، إذ بدأت تفقد حلقة من حلقات تاريخها الطويل الذي لا يمكن في أي حال من الأحوال إعادته إلى حالته الأولى.

أولاً:مفهوم التنمية الحضرية:

أ-تعريف التنمية:

التنمية هي من الألفاظ التي شاع استخدامها في الآونة الأخيرة، وبالرغم من ذلك فاللفظ مازال يكتنفه الغموض والإبهام لكن يمكن القول أن التنمية ما هي إلا تغير إداري ومقصود للانتقال بالمجتمع من الحال الذي هو عليه إلى الحال الذي ينبغي عليه، بمعنى آخر فالتنمية عملية مرسومة بعناية ومخطط لها تخطيطاً واضحاً بهدف إحداث تغيير لتحسين وضع المجتمع على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

ب- تعريف الحضرية:

ورد في لسان العرب لفظ حضر من الحضور ضد المغيب والحضر نقيض البدو.[13] ولقد أطلقت كلمة الحضر على حصن عظيم كالمدينة كان على شاطئ الفرات، ونجد اشتقاقات لغوية أخرى مثل كلمة التحضر أو حضري كما نجد كلمة حضارة ويعرفها لويس ويرث أحد زعماء المدرسة الأنثروبولوجية الحضرية في مقاله المقدم سنة 1939 بعنوان الحضرية كأسلوب حياة أنها طريقة معينة في الحياة لا تحدد وفقاً لمقاييس إحصائية ككثافة السكان، وإنما تحدد انطلاقاً من أنماط السلوك الاجتماعي وهي تنبعث من المجتمعات على خلاف طبيعتها منعزلة كانت أم متفتحة،[14] يتحدّث الكاتب الألماني توماس مانMan Tomas "عن الحضرية قائلاً أن الحضارة هي الروح العميقة للمجتمع، وأن الحضرية هي الآلية الصمّاء.[15] أي أنها النواة و المركز الذي منه تنبعث التجهيزات الاجتماعية و الثقافية والإدارية المكونة للهيكل العام للمجتمع، بعد صدور التقرير الدّولي عن الحالة الاجتماعية لسكان العالم سنة 1957م، تغير مفهوم التنمية الحضرية وأصبح يحمل معنى جديد يتمثل في تطوير المجتمعات الريفية إلى مجتمعات متحضرة عبر توفير جملة من الخدمات،[16] من ناحية أخرى ترى منال طلعت محمود أن التنمية الحضرية عمل ديمقراطي جماعي يتعاون فيه سائر أفراد المجتمع إذ يقوم بتنظيمها وتوجيهها لتحقيق التغيّر الاجتماعي المطلوب من أجل نقل المجتمع الحضري من وضع اجتماعي معيّن إلى وضع آخر أفضل منه، و كذلك رفع و تنسيق المستوى المعيشي للناس اجتماعياً و اقتصادياً،[17] وأصبحت التنمية الحضرية تشير إلى زيادة الكثافة السكانية بما يتعدّى 2000 نسمة في الكيلومتر مربع، وكبر حجم المدينة بتعداد يقدر بـــ 10 000 نسمة، وسيادة المهن التجارية والصناعية، ووجود قدر عالي من التقدّم التكنولوجي، و تشييد العمارات الشاهقة الارتفاع وإنشاء الشوارع الواسعة والأحياء الكبيرة وغرس الأشجار.[18] ونخلص إلى أن مفهوم التنمية الحضرية هو عملية تطوير وتغيير المجتمعات من الحالة التي هي عليها إلى حالة أخرى مغايرة، وهي تشير إلى الزيادة في كثافة السكان وفي حركة التصنيع والمواصلات واشتغال الأفراد في الصناعات الحديثة، ووجود درجة عالية من التعقد الاجتماعي، وتقسيم العمل واستعمال مواد البناء الحديثة والطرز الجديدة المتمثلة في البناء العمودي، ونكتفي بالقول أن التنمية الحضرية: هي صورة من صور الحضارة ومرتبة من مراتبها، وانتقال من نمط قائم من أنماط الحياة إلى نمط آخر معتمدة بذلك على الاختراع الذي لا يهبط من السماء ولا ينبع من الأرض ولا يستحدث من فراغ، وإنما يكون من تأليف أمور موجودة، ونهاية مطاف طريق طويل من الخبرات أساسه الحاجة، وقد أصبحت التنمية الحضرية لا تتعدى أن تكون خطراً تخريبيًا منظمًا.

ثانياً:أسباب ظهور عملية التنمية الحضرية بمدينة ندرومة العتيقة:

إن لظهور عملية التنمية الحضرية، ومن ثم تأثيرها على النسيج المعماري التاريخي لمدينة ندرومة العتيقة أسبابًا تتمثل في:

-الاحتلال الفرنسي:

إن الحروب والاحتلال الأجنبي قد مست العديد من المدن العتيقة، الأمر الذي نجده مجسداً في مدينة ندرومة العتيقة، لقد أقام بها مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة الأمير عبد القادر سنة 1252هـ/1836م، بالمكان المسمى سيدي يعقوب شمال مدينة ندرومة، وقد ألحق فيه هزيمة نكراء بالفرنسيين، لكن جددت فرنسا عزمها واحتلتها مع احتلالها لتلمسان عام 1258هـ/1842م، الأمر الذي دفع بالأمير عبد القادر إلى الانتقال إلى المغرب الأقصى لتنظيم نفسه،[19] لقد عملت فرنسا على إقامة منشآت سكنية وتعليمية داخل النسيج العمراني العتيق بطراز أوربي حديث، وبذلك أصبحت المدينة العتيقة تمتاز بظاهرة الثنائية الحضرية المتمثلة في تداخل النسيج الحضري للمدينة العتيقة بالبناءات الحديثة المخصصة للفرنسيين الوافدين على المدينة، ولقد بدأت الارتكازات الأولى للمعمر خارج السور بعد سنة 1880م، حيث تم بناء أول منزل بالطابق والشرفة ومركز البريد و مستوصف **(أنظر الصورة رقم3 و4)**.

الهجرة الريفية:

الهجرة حراك اجتماعي يعبر ردود أفعال قوية ذات أبعاد نفسية واجتماعية واقتصادية،[20] فمدينة ندرومة تم التوافد إليها نتيجة سياسة المستعمر المتمثلة في سياسة الأرض المحروقة التي حولت السكان إلى تجمع فريد من المنكوبين،[21] إضافة إلى غياب المرافق الضرورية في الريف كالكهرباء والطرق المهيأة والمرافق الصحية والتعليمية وظهور موجة التصنيع بالمدينة عقب الاستقلال حيث حظيت هذه الأخيرة بمصانع أهمها مصنع الخشب والفلين ومصنع الصناعات الحريرية ومشروع بناء 48 مسكن شجع من عملية الهجرة الريفية إضافة إلى ظهور العشرية السوداء التي تسبب فيها الإرهاب، زاد من دخول سكان القرى إلى مدينة ندرومة، ما أفرز ضغطًا عاليًا بالمساكن، والجدول التالي يبين المناطق التي انحدر منها السكان إلى مدينة ندرومة العتيقة.[22]

المناطق التي انحدر منها السكان	العدد	النسبة
مدينة ندروم ة(خارج المدينة العتيقة)	112	% 50
بني منير	17	% 7.6
سطور	15	% 6.7
أولاد داود	14	% 6.2
خريبة	13	% 5.8
عين كبيرة	11	% 4.9
أولاد حسنة	12	% 5.4
أولاد براشد	09	% 0.4
حمري بن عامر	07	% 3.1
حصحاص	06	% 2.7
زاوية اليعقوبي	06	% 2.7
دار بن فارس	02	% 0.9
المجموع	224	% 100

لقد أجريت الدراسة على 224 أسرة وتبعاً لما هو مبين في الجدول يمكن القول أن أغلب سكان المدينة هم ذوي أصول متشعبة، فأكثر من 49 % جاءت للعيش بالمدينة العتيقة سواء للعمل أو بحثاً عن ظروف أحسن للعيش،ولقد تبين أنه يوجد نوعين من الهجرة نحو المدينة العتيقة:[23]

1-**هجرة من الخارج إلى داخل المدينة العتيقة:**تتميز هذه الأخيرة بصنفين:

1-أ **الهجرة من خارج مدينة ندرومة إلى المدينة العتيقة:** ولقد تميزت هي الأخرى بمرحلتين

أولاً: مرحلة ما قبل الاستقلال:عرفت هذه المرحلة، توافد عدد كبير من السكان المنحدرين من المناطق المجاورة للمدينة خاصة في بداية القرن العشرين حيث تم وفود موجتين هامتين الأولى ما بين 1901-1911 بأكثر من 300 شخص معظمهم من بني مسهل وتونان. أما الموجة الثانية جاءت متزامنة مع الحرب العالمية الثانية ما بين 1941- 1948، وقد قدم أيضاً إلى المدينة حوالي 859 شخص في خلال ثمانية سنوات، لكن هذه المرة كان النزوح من القرى القريبة لمدينة *ندرومة* كجبالة، بني منـــــير وبني مسهل.

ولقد كان دافعهم في ذلك هو سوء المعيشة كعدم توفر الريف على بعض المأونة، ضف إلى ذلك عدم وجود مراكز لتقابض الحوالات التي كانت تأتيهم من أفراد أسرتهم العاملين بفرنسا مع مشكلة الدراسة. أما بالنسبة للفترة ما بين 1954-1960 فهناك سبب مباشر يتمثل في وحشية الاستعمار الفرنسي.

ثانياً: مرحلة ما بعد الاستقلال: تتميز هذه المرحلة بثلاث فترات:

1- خلال فترة 1962-1974: انجذب سكان المناطق المجاورة خاصة في السنوات الأولى من هذه الفترة مستفيدين بذلك من مغادرة الأفراد الأوربيين وبعض الإسرائيليين لسكناتهم، حيث وفدت نسبة كبيرة تمثل ثلث 3/1 من مجموع السكان من بني منير و الثلثين الآخرين3/2 جاءت من جبالة، بني مسهل، سواحلية وذلك رغبة في تحسين المستوى المعيشي بما أن المدينة في تلك الفترة كانت توفر جميع الخدمات.

2- خلال فترة 1974-1982: تخلل هذه الفترة نوع من الاستقرار إلا أنه مع حلول 1978 ظهر هناك توافد بطيء نتيجة لحركة التصنيع الناجمة عن المخطط الرباعي الثاني (1974-1977) المسطر من طرف الحكومة الجزائرية آنذاك في إطار التنمية الاقتصادية، وبذلك تم استحداث مصنعين الأول مصنع الخشب والفلين ومصنع النسيج إضافة إلى ظهور ورشة 48 مسكن والتي خلقت فرص عمل في قطاع البناء.

3- خلال فترة ما بعد 1982: تتميز هذه المرحلة بإقبال كبير نحو المدينة العتيقة وذلك بعد دخول الوحدات المقيمة في الإنتاج بالمصانع أين تم توفير عدد لا بأس به من أماكن الشغل فكان مشجعاً لهم على الإقامة بالقرب من أماكن عملهم تاركين وراءهم النشاط الفلاحي

1-ب هجرة من داخل مدينة ندرومة الجديدة إلى المدينة العتيقة: ظهر هذا النوع خلال الثمانينيات،حيث انتقلت الأسر التي كانت تعيش بمحط مدينة ندرومة إلى المدينة العتيقة وكانت معظمها أجيرة لا تتمتع بحق الاختيار في وجود المسكن.

2- هجرة داخلية: هذه الهجرة هي عبارة عن انتقال السكان من مسكن إلى آخر داخل النسيج المعماري للمدينة العتيقة في حد ذاتها والسبب في ذلك هو مشكلة الإيجار لأن المستأجر لا يملك مسكناً ثابتاً يستقر فيه وذلك باعتبار المسكن يبقى دائماً متعلقاً بطموح المالك.

الكثافة السكانية:

في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر كانت المدينة العتيقة *لندرومة* متواجدة بين الأسوار بكثافة سكانية قدرت بـــ 2545 نسمة إحصاء عام 1866م،كما قدر عدد المنازل بـــ 263 منزل منها 193 يعود للمسلمين و70لليهود،[24] ومع مرور الوقت وتضافر مجموعة من العوامل ازدادت الكثافة السكانية مع ازدياد توسعات المدينة في المجال العمراني والصناعي حيث وصلت الكثافة السكانية بندرومة إلى 31076 نسمة في آخر إحصاء لسنة 2008.[25]

ثالثاً: تأثيرات التنمية الحضرية على المعالم الأثرية بالمدينة العتيقة ندرومة:

الاهتزازات:

تشهد المدينة العتيقة بحكم تموقعها في مكان استراتيجي حركية واسعة النطاق على المستوى التجاري والاجتماعي الأمر الذي يصاحبه حركة نقل يومية بواسطة السيارات والشاحنات كل ذلك من إفرازات التنمية الحضرية اقتصادياً واجتماعياً، ونظراً لتواجد المعالم الأثرية كالجامع الكبير والحمام البالي ومسجد القدارين ومسجد سيدي أبو علي على واجهة الطرقات فإنها تتعرض إلى اجهادات شديدة وضغوط سريعة ومتتابعة ناتجة عن الاهتزازات الناجمة عن حركة المرور الآلي حيث تعرف هذه الأخيرة على أنها الموت البطيء للمعلم الأثري وهي عبارة عن حركات وتذبذبات مستمرة ومتواصلة ناتجة عن جسم ما بصورة متوازنة، وهي تتسبب في شروخ وشقوق للمعلم الأثري تزيد الشقوق وتعيق إعادة الوضع إلى ما كان عليه.

التلوث الجمالي: إن وظيفة الفن هي صناعة الجمال والعمارة هي واحدة من الوسائل التي تصنعه فهي ليست مجرد أبنية تقام لحل مشكلة سكنية أو غيرها، بل هي المظهر الحضاري والقومي الذي يحدد الشخصية الثقافية والاجتماعية للأمة، لكن الضغوط الحضرية أفرزت الكثافة السكانية العالية التي فرضت نمط البناء العمودي، الأمر الذي أخفى جمالية وأصالة المساجد، إضافة إلى ذلك فهناك بعض التجهيزات التقنية كالخيوط الكهربائية والمتشعبة والمقعرات الهوائية والعداد الكهربائي والمائي التي تلتصق بالمساكن والأحياء العتيقة والتي زادت من تفاقم مشكل التلوث الجمالي، والرسم التخطيطي التالي يبين حالة النسيج العمراني بالمدينة العتيقة ندرومة (أنظرالصورة رقم4 و5).

التلوث البيئي:

لقد استفادت مدينة *ندرومة* في إطار دفع عجلة التنمية الحضرية من المخطط الرباعي الثاني 1974-1977، والذي وضعته الجزائر آنذاك حيث تم انجاز مصنعين الأول للنسيج SOITEX في سنة 1982 والثاني للخشب والفلين في سنة 1979، الأمر الذي أدى إلى ظهور حركة تصنيع بالمدينة ونشاط مروري وتجاري خاصة أيام الأسواق الأسبوعية، ومع مرور الوقت تكاثفت وسائل النقل والمواصلات مُفرزة بذلك غازات ملوثة، اتفق عليها الخبراء المصريون والإيطاليون في دراساتهم العديدة أنها تشكل خطورة بالغة على مواد البناء المستخدمة في المباني الأثرية ويذكر العالم فاسينا Fassina أن التجارب التي أجريت أثبتت أن 60 % من نسبة غاز الكبريت الموجودة في الجو ترجع إلى العمليات الصناعية المختلفة ومع وجود الرطوبة تتفاعل تلك الغازات الملوثة مع الأحجار ومواد البناء كالملاط محدثةً تلفاً للمعلم الأثري. بخصوص مدينة *ندرومة* العتيقة فهي الأخرى تعاني من هذا الضرر إذ يتواجد بالمدينة 6290 مركبة من بينها سيارات، شاحنات، دراجات نارية..الخ،[26] يمكن للسيارات أن تتوغل داخل المدينة العتيقة، **أنظرالصورة رقم6**، من أهم الغازات الناتجة عن عوادم السيارات والشاحنات، والتي تشكل خطراً على مواد البناء بالمعالم الأثرية، فهي تتمثل في مايلي:غاز أول أكسيد الكربون (***CO***)، وهو غاز سام وخطير، وغاز ثاني أكسيد الكربون (***CO2***) وأكاسيد النيتروجين (***Nox***) والهيدروكربونات (***HC***).

وثاني أكسيد الكبريت (SO2) الذي إذا ما اتحد مع غاز الأكسجين يتحول إلى غاز ثالث الكبريت، ثم يتحول فيما بعد إلى حمض الكبريتك،وجزيئات الرصاص السامة التي تتسرب هي الأخرى من عوادم المركبات.من خصائص هذه الغازات أنها عديمة اللون وذات درجة سُمّية عالية، كما أنها حينما تختلط مع مياه الأمطار تكون مطر حمضي يفتت مواد البناء و يضعف من صلابة المعلم الأثري كلية.

انزلاق النشاطات التجارية للمدينة العتيقة وتراجع الصناعات الحرفية:

لقد اكتسبت مدينة *ندرومة* العتيقة نشاطاً تجارياً وصل إشعاعه إلى غاية مدينة فاس و طنجة حيث تم إحصاء ما يقارب 1148 حرفة سنة 1867 مقارنة مع ما يذكره ألفرد بل حول امتلاك تلمسان 500 حرفة في نفس الفترة الزمنية ومن هنا يتبين مدى تطور الجهاز التجاري لمدينة *ندرومة*، لكن مع ظهور التنمية الحضرية بالمدينة تغيرت العادات الاستهلاكية وأخذت تلك الحركة التجارية تتقلص و تتغير حسب المتطلبات الجديدة للسكان، فلقد كانت تحتوي على 75 % من مجموع محلات النسيج سنة 1954 لتتراجع إلى 54 % من مجموع المحلات سنة 1981، كما نجد حي الخربة الذي كان يضم مايقارب54% من مجموع المحلات سنة 1954، لم يعد يضم إلا 17 % سنة 1981. إن هذا التقلص والانزلاق في النشاطات التجارية قد تم نحو الشمال أي الأحياء الحديثة وذلك مع بناء السوق المغطى سنة 1953 الذي أصبح وجهة تجارية لجميع السكان داخل المدينة وخارجها، **(أنظر الرسم التخطيطي رقم 01)**. أما فيما يخص

النشاط الحرفي اليوم فهو في تراجع مستمر بعد ما كان يعتبر العمود الفقري لاقتصاد المدينة وأصبح اليوم ملجأً للفئات المحرومة هرباً من شبح البطالة.

رابعاً: اقتراحات المعالجة:

ومن أهم التدابير العلاجية التي تكفل حماية المباني الأثرية من تأثير التنمية الحضرية بمدينة ندرومة العتيقة،لأنه مهما اختلفت المعالم الأثرية من حيث النوع أو العمر أو القوة أو الضعف فهي تحتاج إلى تدابير وقائية وعلاجية بصورة مستمرة، لكي تحول دون زوال المعلم الأثري وتمده بأسباب القوة والبقاء و بالتالي وقايته ومن التوفيق بين الأصالة والمعاصرة في مدينة ندرومة:

1- **القيام بعملية الجرد والتصنيف:** ويقصد بذلك إجراء عملية جرد وتسجيل المعالم التاريخية المتواجدة على مستوى المدينة لتسيير الحفاظ على طابعها على الورق، فإذا ما أتلفت أمكن إعادة ترميمها وفقاً لما هو محتفظ به من معطيات هندسية و صور فوتوغرافية بالإضافة إلى تصنيفها ومن غايات هذه العملية أيضاً:

- إعداد خريطة أثرية للبلاد تكفل حماية المعالم والمواقع التاريخية من المشاريع التنموية.
- تكوين بنك معلوماتي للدارسين والباحثين.
- تقسيم الثروة الأثرية في البلاد ومدى إسهامها في الدخل القومي.
- المحافظة على النمط والطابع المعماري المميز للمعلم الأثري عبر التقاط الصور وإجراء قياسات المساحة والقيام بعملية الرفع المعماري.

2- **إجراء عملية ترميم وصيانة دورية:** إن عملية الترميم من أهم المواضيع وأدقها على وجه الإطلاق باعتباره يحتاج إلى خبرة فنية وعلمية وإلى تجربة وممارسة لذلك لابد أن يتولاه ذوي الاختصاص لتفادي الأخطاء التي لا تخدم مفهوم الأصالة، مع العلم أن المسجد الجامع والحمام البالي بمدينة ندرومة العتيقة قد أجري لهما عملية ترميم سنة 2003.

2- **إدماج المعالم الأثرية في وظائف خاصة بها:** إن إدماج المباني الأثرية ضمن وظيفة خاصة بها خطوة مهمة لحمايتها، مثل ما تم القيام به للمعلمين السالفين الذكر، إذ تم إرجاعهما لدورهما الذي أعدا من أجله، ويُحَقق هذا الإجراء عدة امتيازات منها:

- الحيلولة دون إهمالها أو هجرها أو تشويه نمطها المعماري.
- تأمين عملية الإنفاق عليها لصيانتها والعناية بها.
- إحيائها من جديد وربطها بالحياة الحديثة إلا أنه لابد من توفر شروط الانسجام بين البناء الأثري والوظيفة التي سيشغلها.

3- **القيام بعملية التحسيس:** تعتبر عملية التحسيس من الأمور الضرورية لحماية الممتلكات الثقافية المادية حيث تعتبر هذه العملية المعركة المرتقبة لذلك لابد من تكثيف الدعاية الإعلامية عبر المكاتب السياحية والبرامج التلفزيونية والجمعيات الناشطة في هذا المجال بجانب هذا يتم تطبيق القانون 04/98 (الجزائري) بحذافيره حتى يتم الحفظ السليم للمباني الأثرية والمحيط الذي تقع فيه.

4- **تشجيع البناء بالنمط التقليدي العتيق:** تأتي هذه الخطوة بهدف ربط النمط المعماري القديم بالحياة المعاصرة من جهة، وتحقيق الانسجام المعماري وإضفاء ملامح المدينة العربية الإسلامية للقضاء على التشوه الجمالي من جهة أخرى.

5- **إبعاد أماكن توقف السيارات والحافلات وشبكة الطرق عن المعالم الأثرية:** إن التغاضي عن هذه المسألة من شأنه إحداث تلوث بالمحيط العمراني واهتزازات ولتفادي ذلك لابد من إعداد أماكن توقف السيارات ودراسة شبكة الطرق ودراسة علمية ليتم وضعها بعيداً عن المعالم الأثرية.

6- **إعطاء دفع جديد للصناعات الحرفية:** إن مثل هذه الصناعات تشكل روح المدن العتيقة باعتبارها أحد أهم المظاهر الحضارية التي خلفها الأسلاف لذلك كان من الجدير إعطاء دفع لها وذلك بـــ:

- توفير المادة الأولية للمنتوج كالصوف – الجلد – الطين – الخشب.
- تقديم قروض مصغرة في مجال الصناعات الحرفية مع تخفيض نسبة الفوائد.
- القيام بالدعاية للمنتجات الصناعية التقليدية.

وعلى هذه الخطوات التي ذكرناها يمكن إرساء قواعد لحماية مستدامة للمعالم الأثرية من اجتياح التنمية الحضرية، وختاماً يمكن القول أن المعالم الأثرية والمواقع التاريخية هي إرث حضاري تاريخي ذات دلالة اجتماعية وثقافية واقتصادية، عما أبدعه الأسلاف في مضمار الفن المعماري، الأمر الذي يضفي على الماضي دوراً ريادياً في حياة الحاضر والمستقبل، ذلك ما يؤكده أوجست كونت بقوله " *الإنسانية تتألف من الأموات أكثر من الأحياء*"، وهكذا فإن الأموات يزداد حكمهم للأحياء شيئاً فشيء، مفاد ذلك أن للماضي في الحضارة الإنسانية صفة خاصة لأنه ماضٍ لا يتوقف بل يستمر ويتحرك من خلال الحاضر نحو المستقبل ، لكن باعتبار الحضارة كائن ينمو ويتطور، كان ظهور التحول وما هو جديد أمراً حتمياً فلا يكاد جيلان في المجتمعات يعيشان الحضارة نفسها بصورة متحدة في كل التفاصيل، وذلك ناتج عن الحاجة المتجددة التي هي أم الاختراع، هذا الأخير الذي يعتبر من أهم أسباب التغير الحضاري،وتتمثل أساليب التغير والتطور في عدد من الظواهر الحضارية ، كظاهرة التنمية الحضرية التي تعتبر ظاهرة اصطناعية تنمو وتتضح بازدهار صور الفنون الصناعية للمجتمعات، فرضتها سنة التجديد،التي لا تجد في قاموسها مكانة للمعالم الأثرية والمواقع التاريخية ،التي أصبحت تتوارى يوما بعد يوم تحت تهديد الزوال الناتج عن الضغوط الحضرية المستفحلة. إن هذا الوضع سيؤدي لا محالة إلى ضياع حلقة مهمة من حلقات التسلسل الزمني للحضارة ومن اتساع الهوة بين الأصالة والمعاصرة .

إن مدينة ندرومة هي واحدة من المدن الإسلامية الزاخرة بإرث معماري أصيل تعتبر نموذجاً لما يحدث بالمدن العتيقة والمعالم الأثرية من تشويه وإحداثٍ لقطيعة بينها وبين ماضيه، الذي يوفر لنا جميعاً الشعور بالإنماء، لذلك كان التدخل لزاماً لاستدراك ما يقع قبل فوات الأوان، بإجراء ترميم وصيانة دورية للمعالم الأثرية غير المرممة كالمساكن العتيقة بطرق علمية تكفل تجسيد مبدأ الأصالة، ثم القيام بتطبيق القانون الذي يحد من هجوم المشاريع التنموية على الأماكن التاريخية،إلى غير ذلك من الإجراءات التحسيسية للسكان ،ومن تمَّ يمكن أن تتكون لـــلمعالم الأثرية مكانةً اجتماعية واقتصادية،من خلال دورها في دفع قاطرة التنمية المستدامة بواسطة السياحة التي تعتبر الرهان الذي تسعى الجزائر وجميع الدول إلى تحقيقه في السنوات القليلة المقبلة.

ABSTRACT:

THE INFLUENCE OF URBAN DEVELOPMENT
ON THE ARCHAEOLOGICAL FEATURES:
THE CASE STUDY OF *NEDROMA* CITY

This paper explains the urban development and its relevance to the historical cities focusing on Nedorma City as a case study. The paper discusses the consequence of the urban development on the historical texture of city, the mitigation and limitation of its side effects on the historical architecture of the city with monitoring of the archaeological features of the city.

ندرومة وماجاورهامخطط تهيئة جبال
ترارة ومنطقة تلمسان عن ولاية تلمسان

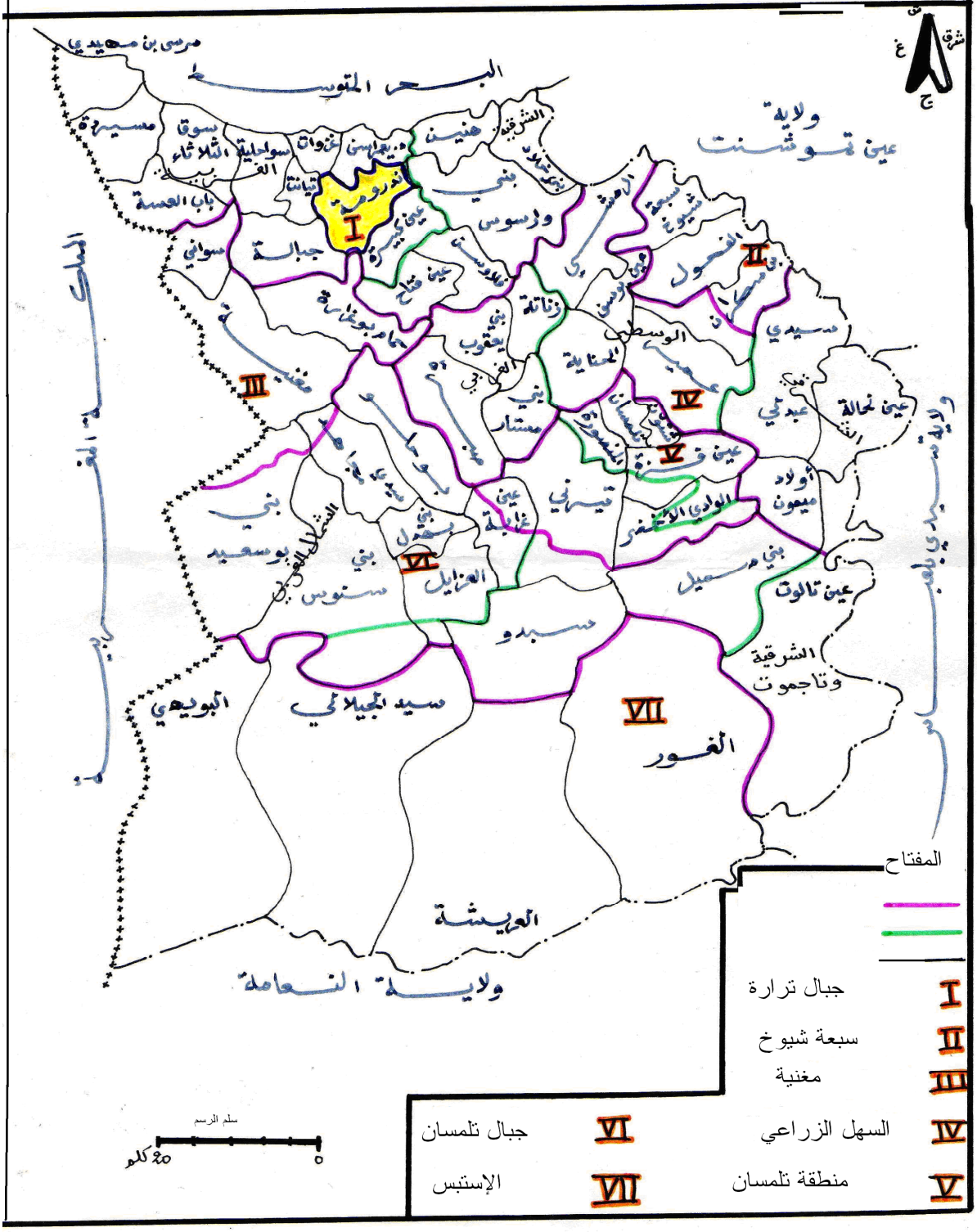

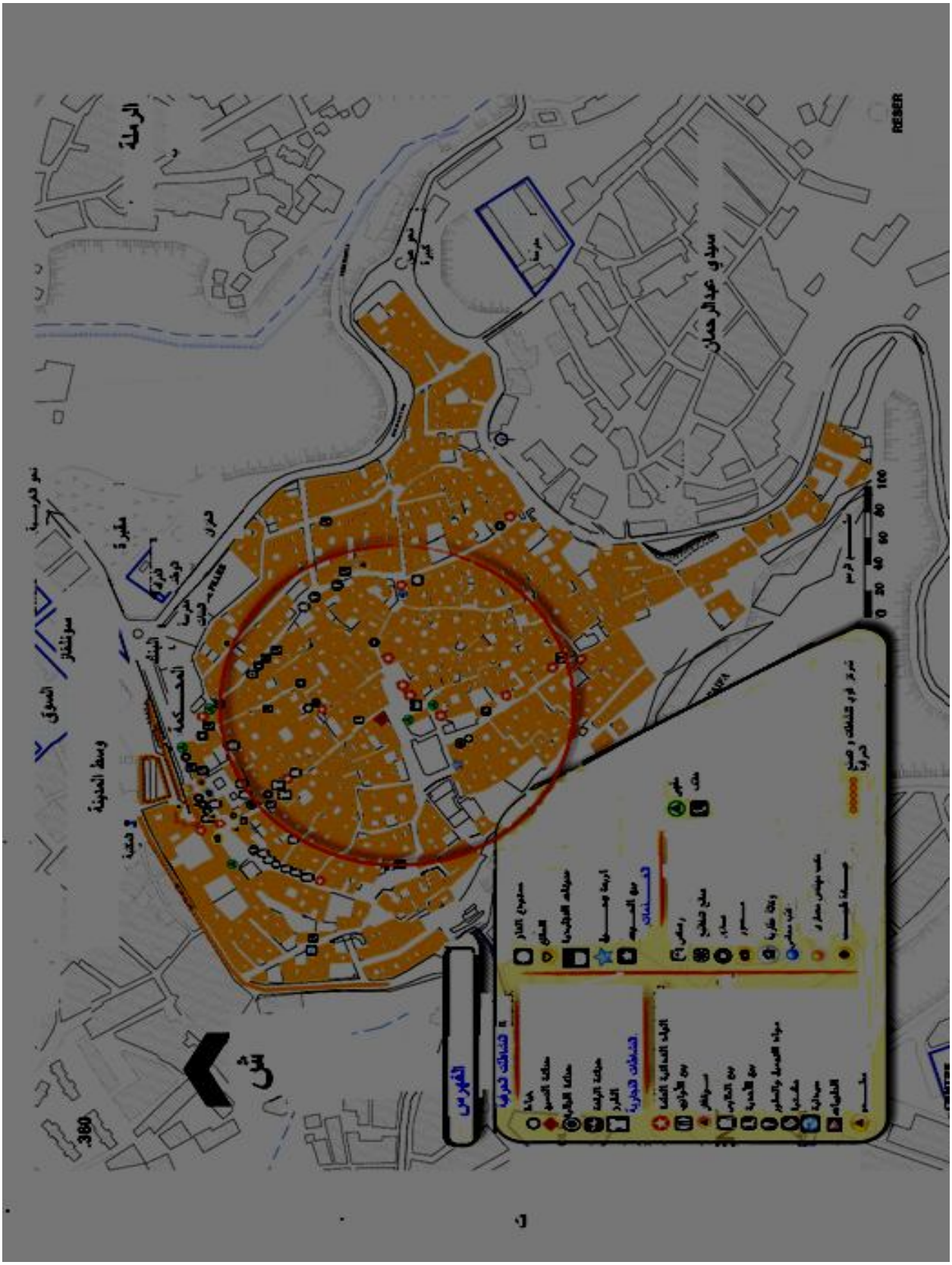

الرسم التخطيطي رقم01: يبين انزلا قات النشاطات التجارية نحو الشمال

الصورة رقم01 :تبين منظر للمسجد الجامع بمدينة ندرومة العتيقة

الصورة رقم02 :تبين منظر للحمام المعروف باسم الحمام البالي(القديم) بمدينة ندرومة العتيقة

الصورة رقم 03 : تبين المستوصف المنجز من طرف المستعمر الفرنسي بمدينة ندرومة

الصورة رقم 04 : تبين قباضة البريد المنجزة من طرف المستعمر الفرنسي بمدينة ندرومة

الصورة رقم 05:: منظر عام لمدينة ندرومة تظهر فيها مئذنة المسجد الجامع سنة 1930م

الصورة رقم 06: منظر عام لمدينة ندرومة سنة 2015م تظهر التلوث الجمالي الذي اعترى المدينة العتيقة

الصورة رقم 06 : تبين حركة السيارات داخل النسيج التاريخي للمدينة العتيقة و كذا نمط البناء العمودي للمنازل

الحواشي:

[1] CANAL, 'Monographie De L'arrondissement De Tlemcen', *Bulletin de société de géographie et de l'archéologie de la Provence d'Oran* T VIII (1888), 83

[2] KHALIFA ABDERRAHMANE,HONAINE, *ANCIEN PORT DE ROYAUME DE TLEMCEN*, ÉDITION DALIMEN ALGEREIE2008 , 25

[3] بلدية ندرومة (إحصاء 2008)

[4] الحسن بن محمد الوزان، *وصف إفريقيا*، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار المغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1983، 14

[5] Réné Basset, *Nédroma et les Traras*, Publication de l'école des lettres d'Alger Paris 1901, 5-7

[6] أبو عبيد الله البكري، *المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب*، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، (بدون تاريخ)، 80

[7] الشريف الإدريسي، *المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق*، مفقه محمد صادق، 1983، ديوان المطبوعات الجامعية ، 190

[8] ابن مريم، *البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان*، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1986، 31

[9] Réné Basset, *Nédroma et les Traras*, 22-23

[10] Réné Basset, *Nédroma et les Traras*, 26-27

[11] Marie Anne Prenant Thumelin, Nedroma, *Annales Algériens de Géographie*, N°4, Juillet- Décembre 1967, 46.

[12] جمعية المحافظة على التراث: الجمعية الموحدية بمدينة ندرومة.

[13] ابن منظور، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، مج 13، 1994، 203.

[14] فادية عمر الجولاني، *علم الاجتماع الحضري*، دار عامر للكتب، الرياض، 1984، 78

[15] صابر محي الدّين،*التغّير الحضاري و تنمية المجتمع*، منشورات المكتبة العصرية بيروت،1962، 40

[16] ساعد هماش، *التصنيع والتنمية الحضرية*، دراسة تحليلية بمدينة العلمة ولاية سطيف، رسالة ماجستير، تخصص علم الاجتماع الحضري، جامعة منتوري قسنطينة، 18،2009

[17] منال طلعت محمود، *التنمية و المجتمع*، المكتب الجامعي الحديث، مصر،69،2001

[18] حسن علي حسن، *المجتمع الريفي والحضري*، المكتب الجامعي الحديث، مصر،1991،311.

[19] دردار فتحي، *الأمير عبد القادر الجزائري بطل المقاومة الجزائرية 1832م/1847م*، دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع،الجزائر،55،2001

[20] Mireille Meyer et autres, 'Des migrants et des villes mobilité et insertion', *Travaux et documents L'IREMAM*,N° 06 Aix en Provence 1988, 109

[21] عبد اللطيف بن أشنهو، *تكون التخلف في الجزائر*، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1979، 451

[22] بلدية ندرومة، مصلحة الإحصاء

[23] خياط مصطفى، *دراسة تطور المدينة العتيقة لندرومة، رسالة مهندس دولة في التهيئة العمرانية والإقليمية*، معهد الجغرافيا والتهيئة الإقليمية، وهران 1993، 69

[24] Marie Anne Prenant–Thumelin, *Nédroma Etudes Urbaine Mémoire Présenter pour le diplôme d'études supérieur de Géographie* 1955, 99-100

[25] بلدية ندرومة مصلحة الإحصاء

[26] مصلحة التنظيم و الشؤون العامة- ولاية تلمسان